عبدالناصر..في صنعاء

سجل التاريخ بأحرف من نور تلك الزيارة العظيمة التي قام بها عبدالناصر إلى صنعاء، حيث صافح الجماهير اليمنية المحتشدة بمختلف طبقاتها وشرائحها. فقد التقى بالقبائل ، والعلماء ، والموظفين ، والعمال ، والمزارعين ، والتجار ، وأفراد القوات المسلحة ، والشباب . حيث تحدث إلى الجماهير بقلب كبير ومفتوح، مُذكراً الشعب اليمني بماضيه المشرق والمشرف، قائلاً في إحدى لقاءاته (كانت اليمن معين الثورة ضد الطغيان ، وضد الاستبداد وضد السيطرة) وقال: (كان لليمنيين الدور في نشر الإسلام في شرق وجنوب آسيا .. وسطها وشمالها).

وأضاف: (حينما كنت ازور مناطق في مختلف أنحاء آسيا .. كنت أسمع منهم أن الإسلام وصل إلى هنا بواسطة اليمانيين).

وفي تعز

ولم يكتف عبدالناصر بزيارة صنعاء فقط، بل حرص على زيارة محافظة تعز كونها أقرب نقطة إلى الجنوب المحتل، فخاطب الجماهير مُلهباً حماسهم ، مؤكداً لهم مواصلة الدور المصري في دعم الثورة اليمنية والانتصار على المؤامرات. وأشاد بنضالهم الكبير. وأمام عشرات الآلاف القى خطاباً تاريخياً لا يزال اليمنيون يتغنون به ، خطاباً قابلته الجماهير المحتشدة بالتصفيق الحار والدموع والأهازيج. حتى وصلت مشاعر الحب والحماس لهذا الزعيم العربي إلى حمل سيارته على الأعناق، في مشهد لن ولم يتكرر مطلقاً. خاصة بعد أن عمد الزعيم العربي إلى توجيه عدة رسائل إلى المستعمر الأجنبي في الجنوب الحبيب.

فأمام عشرات الآلاف التي احتشدت في ميدان (العرضي) في تعز للقائه ، قال جملت++ه الشهيرة التحذيرية لبريطانيا:(إن بريطانيا لابد وأن تجلو عن عدن – إنٍ كلاً من عدن والجنوب ارض عربية ، وانه من المستحيل تماماً على بريطانيا أن تفرق بين عرب وعرب أو يمنيين عن يمنيين) .

ثم قال جملته الأشهر التي حملت في طياتها إنذارا صريحاً وجازماً ، ودعماً معنوياً عالياً لثوار الجنوب المحتل: (إن بريطانيا ، التي تنظر إلى ثورتكم بكراهية وحقد ، يجب أن تحمل عصاها على كتفها وترحل من عدن ، إننا نعاهد الله على هذه الأرض المقدسة أن نطرد بريطانيا من كل جزء من الوطن العربي) .

وأضاف: (ولقد بذلنا الدماء وضحينا بالأرواح وحققنا النصر ، وسنبذل الدماء ونضحي بالأرواح ونحقق النصر في اليمن كما حققناه في مصر) .

خطاب عبدالناصر يلهب حماس «الثوار في الجنوب»

يؤكد الكثير من الخبراء والمحللين، على أن خطاب عبدالناصر في تعز، نجح نجاحاً كبيراً في رفع معنويات الثوار في جنوب اليمن المحتل، كما عمل على إزعاج المستعمر الأجنبي . فقد تصاعدت الهجمات على قوات الاحتلال ، واكتسبت ثورتهم زخماً وازدادت ثورة تحرير الجنوب اشتعالاً وقوة. ففي شهر واحد فقط «مايو١٩٦٤» م، سقط العشرات من الجنود ، كما اتجهت أنظار العالم نحو ردفان في ثورتها . وأرسلت بريطانيا الكثير من النجدات المتمثلة في الكتائب إلى عدن لتعزيز جيشها بعد أن تبين أنه غير قادر على مقاومة الثوار والمتمردين. حيث قال: (أيها الإخوة الثوار ..رأيت الشعب اليمني فيكم اليوم تتمثل القوة والعزة والثورة والحرية..هذا الشعب اليمني الذي صمم على الحرية فثار ونصره الله.. وحقق له العزة والكرامة والحرية ..أيها الأخوة الأعزاء ..كان اليمني دائماً رافع لواء الإسلام ورافع لواء الحرية في مشارق الأرض ومغاربها حتى تكبل عليه الأئمة فأذاقوه صوت العذاب وحبسوه بين حدوده ومنعوه من أن ينشر رسالة الحرية والإسلام في العالم . فهل استكان الشعب اليمني؟ أبداً لم يستكن الشعب اليمني..بل ثار دائماً على الذل والعبودية وعلى حكم الاستبداد وحكم الإرهاب حتى قامت طليعة الشعب اليمني في يوم ٢٦ سبتمبر سنة٦٢ م، قامت لتدك معالم الظلم ولتدك الرجعية والاستبداد وأراد الله لها أن تنتصر ، فانتصرت وكان انتصارها انتصاراً لكم جميعاً . أنتم شعب اليمن الذي صمم دائماً على الحرية فقاتل وكافح دائماً من أجل الحرية. أيها الأخوة أنتم شعب يمني واحد ، أراد الاستعمار أن يُفرق بينكم وأراد أن يجعلكم شيعاً وأحزابا ولكن إرادة الله وإرادتكم كانت فوق إرادة الاستعمار . ولم يفلح الاستعمار ولم تفلح الرجعية في أن تقسمكم وان تفرق بينكم . واليوم نحن نعلنها للجميع بأن بريطانيا ومنذ عدة أشهر ترسل الأسلحة لكي تضرب ثورتكم ولكن الأسلحة لم تستخدم ضدكم بل ارتدت إلى صدور الاستعمار وإلى أعوانه. لن نمكن الاستعمار من أن يبقى في أي جزء من أرض الأمة العربية ولابد للاستعمار ولابد لبريطانيا التي تنظر إلى ثورتكم بكراهية لابد أن تحمل عصاها وتخرج من عدن).

هيكل: عبدالناصر بدا وسط زحام البشر بصنعاء كأنه «شراع وسط البحر الواسع»

وحول زيارة عبدالناصر إلى اليمن يصف الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل، أجواء هذه الزيارة انطلاقا من تجربته ومعايشته للحدث، بقوله:

– لقاءات جمال عبدالناصر – على سبيل المثال – مع جماهير الشعب اليمني، من سكان المدن وأهل القبائل، في شمال اليمن وفى الجنوب، حين كان عبدالناصر يبدو وسط زحام البشر كأنه شراع وسط البحر الواسع الممتد! ولقد كان كل الذين يراقبون الصورة الحية والرائعة، لا يصدقون ما يرون، وأذكر مرة في ميدان التحرير بصنعاء، وجمال عبدالناصر محاط وسط الميدان الفسيح بعشرات الآلاف، أن «جورج ماك آرثر»، مراسل وكالة الأسوشييتدبرس العالمية، قال منفعلاً وعينه على الصورة الحية الرائعة أمامه: (رباه، أليس هناك مسئول واحد عن الأمن، يقول لهذا الرجل أنه مهما بلغت ثقته بهؤلاء الناس الذين ترك نفسه وسطهم، فليس ينبغي له أن ينسى أن كل واحد منهم – بحكم تقاليد اليمن – يعلق على كتفه بندقية ويحمل في وسطه خنجرا)!

وصورة باقية أخرى – على سبيل المثال – حين دخل جمال عبدالناصر إلى نادي ضباط الطيران في صنعاء، كان وسط خلاصة الخلاصة من شباب مصر، وكانوا جميعاً رموزاً مدهشة للشجاعة والشباب. وحين دخل إلى القاعة الكبيرة من ناديهم كان ترحيبهم به خمس دقائق متصلة من التصفيق الذي لا يهدأ ولا يتمهل. وتحدث إليهم بعد العشاء وكانت جوارحهم كلها معه، ثم تحدث الرئيس السلال إليهم ليقول لهم أنهم وطائراتهم كانوا أمله في الأيام الأولى من المعركة وأنه يأسف إذ ضايقهم بالبقاء فى قاعدتهم الجوية في الروضة، يتابع مع الساعات نشاطهم فوق جبهات القتال المتعددة، وكان يضحك معهم لذكريات تلك الأيام وكانوا يضحكون معه، ثم طلبوا إلى عبدالحكيم عامر أن يقول بدوره كلمة، ولم يقم عبدالحكيم عامر من فوره إلى الكلام، وإنما حاول أن يثنيهم عن الإلحاح عليه لكن تصفيقهم طلباً له لم ينقطع، ووقف وابتسامة حب تملأ وجهه يحاول أن يشدها بتعبير عتاب، يقول لهم:

– ماذا تريدون أن تسمعوا مني... هل تريدون أن تسمعوا أنى فخور بكم.. ليكن، اسمعوها مرة أخرى... لست وحدي الفخور بكم، أمتكم كلها تعيش بالفخر معكم!.

هيكل: دخول عبدالناصر تعز صورة تاريخية لتلال القدس تستقبل قديساً عائداً اليها

ثم صورة ثالثة، على سبيل المثال – فى منظر دخول جمال عبدالناصر إلى مدينة تعز. كانت الصورة لا تكاد تصدق، كأنها لوحة تاريخية لتلال القدس تستقبل قديساً عائداً إليها. إن «تعز» فيها الكثير من الشبه بالقدس، والطريق إليها مثل الطريق إلى القدس يمتد على الوادى بين التلال التي تتناثر فوقها الخضرة. وحين اقترب جمال عبدالناصر من «تعز»، تدفق أهلها على سفوح التلال متدافعين إليه على الطريق في قلب الوادي. وكانت طبولهم تدق، ودعاؤهم وصلواتهم تتجاوب مع دقات الطبول، وأشكال القادمين على السفوح وأزياؤهم، هي أشكال وأزياء قرون طويلة مضت، وحتى سحب الغبار التي أثارتها الأقدام الزاحفة إلى قلب الوادي كانت لوناً مؤثراً فى لوحة التاريخ العظيمة عند دخول «تعز».

ثورة يوليو تدعم ثورة سبتمبر «دون تردد»

يقول الكاتب سامي شرف: لقد اتخذت القاهرة قرارها دون تردد في مساندة الثورة بمجرد تعرفها على أسماء قادة الثورة التي كانت في الأصل تعرفهم مسبقاً. فقد استنجدت الثورة الوليدة بالقاهرة لتنفيذ وعدها بالمساندة حسب قرار مجلس الرئاسة المصري الذي كان قد أتخذ بالإجماع ، وفى خلال أيام كانت وحدات من قوات الصاعقة المصرية تصل إلى اليمن .

لقد كان هذا القرار يمثل التزاما عقائديا للمبادئ التي قامت عليها الثورة الأم في مصر واستمرارا لنفس الدور الذي سبق القيام به نحو الجزائر وسوريا والعراق، وكل حركات التحرر التي احتاجت للمساعدة والمساندة باعتبار أن الحرية العربية لا تتجزأ والدفاع عن حقوق شعب عربي هو دفاع عن حقوق الأمة كلها . لقد كان واضحا بعد مؤامرة الانفصال بين مصر وسوريا في سبتمبر١٩٦١ م أن الاتجاه السائد لدى القوى المعادية للتحرر العربي هو خنق كل صوت ينادى بالتحرر العربي ، وفى نفس الوقت فإنه كان من المستحيل على مصر أن تمارس دورها إلا في مجالات تأثيرها وتأثرها . وعندما قامت ثورة اليمن في سبتمبر١٩٦٢ م كانت وحيدة فى مواجهة عواصف عاتية من كل اتجاه، وطلبت هذه الثورة نجدة مصر . كان السؤال الذى طرحه الزعيم جمال عبدالناصر آنذاك لاتخاذ القرار حول المساندة المصرية بمختلف صورها هو: هل نترك ثورة اليمن وحيدة يسهل ضربها أو إجهاضها؟ وماذا سيكون عليه حال الأمة العربية إذن؟. وكان الرد بعد دراسة مستفيضة ومناقشات طويلة للإجابة على هذا السؤال يتلخص في الآتي:

أولا: أن أمن ومستقبل الحركة الوطنية العربية معلق فى الميزان .

ثانيا: أن الوقت لا يحتمل التردد وإلا ضاعت هذه الثورة الوليدة وفى هذا الوقت بالذات.

ثالثا: أن تدخل بعض عناصر الصاعقة والطيران كافيان .

ولقد اتخذ هذا القرار من منطلق مسئولية مصر ودورها القومى مستبعدا وجهة النظر الإقليمية المصرية .

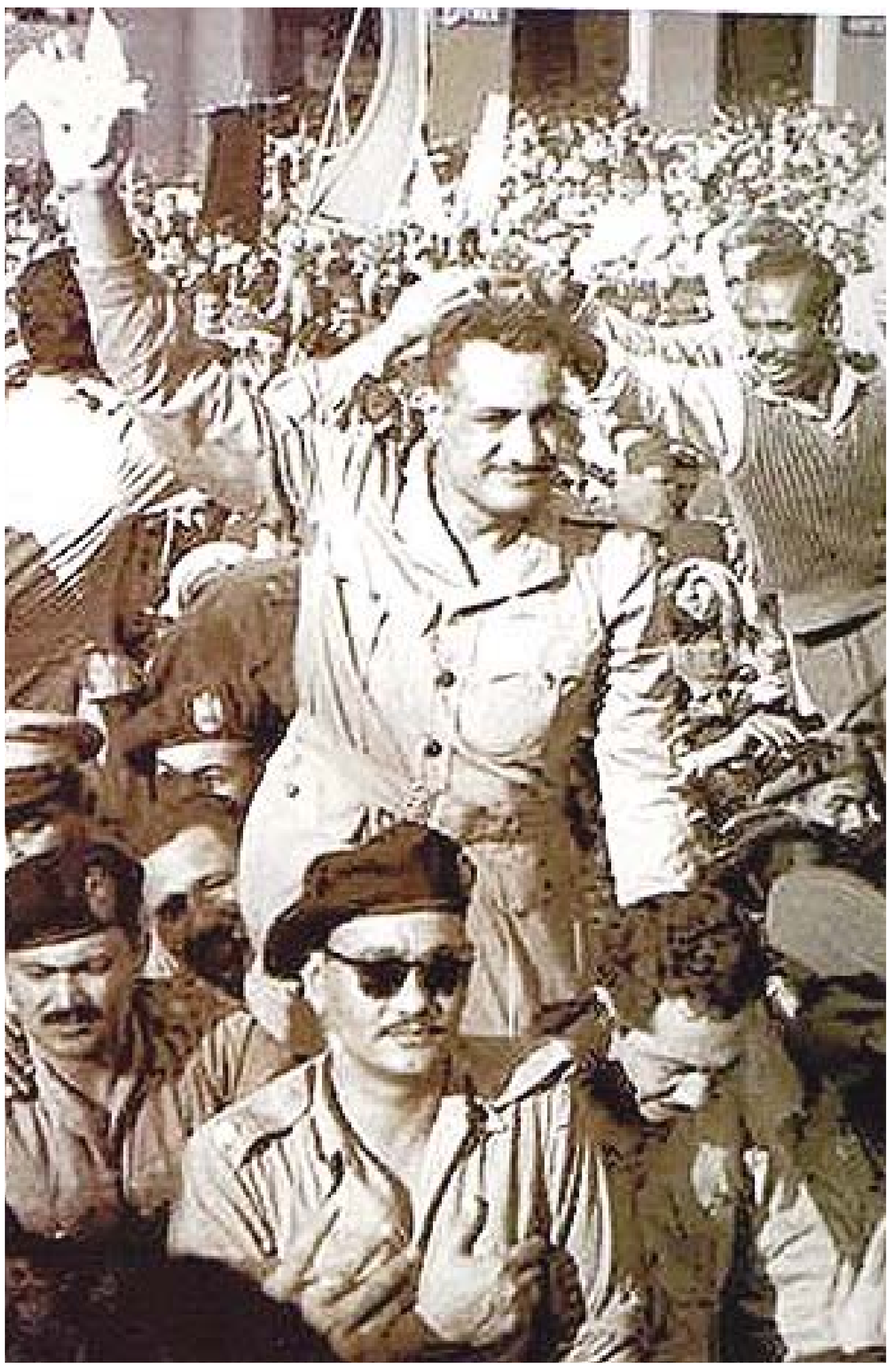

ويضيف سامي شرف:» وهنا لابد من التأكيد على أن قرار القاهرة للوقوف وراء ثورة اليمن لم يكن قرارا انفعاليا اتخذه الرئيس جمال عبدالناصر كما صوره البعض بعد ذلك لمجرد التجاوب مع حركة ثورية في أكثر من مناطق العالم تخلفا ، ولم يكن مجرد رد فعل لنكسة الانفصال سعى عبدالناصر عن طريقها إلى استعادة التوازن لصالح التيار القومى ، أو محاولة للانتقام من الرجعية العربية التي لعبت دورا حاسما في إنهاء تجربة الوحدة المصرية السورية ، بل كان –كما ذكرت آنفا– قرارا نابعا من منطلق أخلاقي ومبدئي التزمت به ثورة٢٣ يوليو١٩٥٢ م . وفى الحقيقة كان قرار الرئيس عبدالناصر متسقا مع ممارسات عشر سنوات مضت من عمر ثورة يوليو. لقد قصدت بهذا الشرح المطول لعلاقة مصر باليمن قبل ثورة ٦٢م أن أوضح أن قرار ثورة يوليو والرئيس عبدالناصر بالوقوف إلى جانب أى محاولة لتحرر الشعب اليمنى قد أتخذ على الصعيد العملي منذ بداية١٩٥٣ م . . وربما فقط كانت للظروف العربية والدولية التي كانت سائدة في سنة١٩٦٢ م دورها فى اكتساب قرار الاعتراف والمساندة للثورة اليمنية سمة الحسم والعلنية التي تنفي عن القاهرة أي محاولة للتردد.

أما ما حدث بعد ذلك فقد كتب فيه الكثيرون وتم التعرض لكل تفاصيله بكل ما للتجربة وما عليها ، لكن ما لا يمكن أن يختلف عليه اثنان أن هذه الثورة قد أحدثت زلزالا في شبه الجزيرة العربية كلها دفعت الاستعمار البريطاني إلى إعادة حساباته ، واضطر تحت ضغط الحركة الوطنية المدعومة من القاهرة للانسحاب من إمارات وسلطنات الجنوب العربي كله، وقيام جمهورية اليمن ودولة الإمارات العربية المتحدة بعد ذلك ، وأعقب ذلك الانسحاب العسكري من منطقة الخليج العربي أيضا ، كما دفعت النظم التقليدية في شبه الجزيرة إلى إعادة ترتيب أوراقها، وتوجيه قدر أكبر من الاهتمام لصالح تحديث وتنمية شعوبها ، كما أصبح البحر الأحمر بحيرة عربية خالصة ، وقبل هذا كله فقد نجحت هذه الثورة في الانتقال باليمن من ظلام العصور الوسطى إلى آفاق القرن العشرين .

ويواصل سامي شرف:» لقد ارتكزت ثورة يوليو فى تخطيط إستراتيجيتها وترتيب أولوياتها على فكرة التحرر؛ كفكرة محورية في كل تحركاتها، وجاء الوطن العربي في مقدمة الدوائر التي يجب العمل من أجل تحريرها تمهيدا لوحدتها الشاملة، وإقامة نظام للأمن القومي العربي يمتلك عناصر القوة اللازمة لمواجهة التهديدات الخارجية .

وإذا كانت فكرة التحرر تستهدف فى الأساس مقاومة النفوذ الأجنبي في كل صوره وأشكاله، فقد كانت مقاومة التخلف فى كل أشكاله أيضا أحد الأهداف الذي رأت فيه الثورة مدخلا ضروريا لإقامة النظام الأمنى المشار إليه ، وأستطيع أن أقول أنه بالنسبة لهذا الشق الأخير؛ أي التصدي للتخلف فقد انتظرت الثورة مبادرة القوى الوطنية فى كل دولة عربية على حدة باتخاذ الخطوة الأولى ،.، أقول أن هذا الخط كان منهج القاهرة فى كل أرجاء الوطن العربي ، وذلك باستثناء اليمن، فقد جاءت المبادرة الأولى من جانب ثورة يوليو١٩٥٢ م وليس العكس وكان لذلك ما يبرره لقد كانت اليمن من أشد مواقع الوطن العربي تخلفا وانعزالا عن كل ما يجري في العالم، فقد كان يحكمها نظام الإمامة على رأسه أئمة استأثروا بالسلطة الروحية والزمنية لأكثر من ألف ومائة عام متصلة. كانت اليمن تمثل عنصر توازن يستعين به الاستعمار البريطاني في الجنوب العربي المحتل والأنظمة التقليدية الأخرى في شبه الجزيرة العربية كجدار دفاع ضد تيارات التغيير والتقدم القادمة من الشمال العربى، وتعتبرها منطقة عازلة بين التقدم والتخلف. وقد كانت هذه القوى – أي الاستعمار البريطاني والرجعية العربية – أقوى مصادر الدعم لحكم الأئمة في اليمن، وعامل الضعف الرئيسي في أي تخطيط ثوري يستهدف هذا الحكم، ولقد لعبت القوتان أدوارهما فى إفشال عديد من الحركات الثورية التى سبقت ثورة ٢٦ سبتمبر١٩٦٢ م .

كانت اليمن – ومن وجهة النظر العربية – نقطة ارتكاز حيوية فى الأمن القومي المصري والعربي بحكم موقعها الإستراتيجي فى جنوب البحر الأحمر وفى مواجهة السودان والقرن الإفريقى وباب المندب ، وأدركت الثورة فى مصر مبكرا أن أي تغيير سياسي في اليمن يمكن أن يحدث ردود فعل إيجابية لصالح حركة التحرر الوطني في الوطن العربي كله.

لهذه الأسباب فلم ينتظر قادة ثورة يوليو قدوم الكوادر الثورية فى اليمن إليها؛ بل حرصت هى على الذهاب إليهم ، وكان ذلك فى العام١٩٥٣ م.

وعندما فكر الرئيس عبدالناصر فى اتخاذ الخطوة الأولى فى اليمن ، كان يدرك حجم الصعوبات التى تكتنف هذا العمل ؛ لقد أدرك من خلال ما يصل إليه من تقديرات سياسية وأحاديث الزعامات اليمنية فى القاهرة أن التخلف الرهيب هو نقطة القوة فى حكم الإمام نفسه، وإذا كان حكم الملك فاروق فى مصر قد شكل أضعف حلقات الأوضاع فى مصر قبل سنة١٩٥٢ م، فقد كان الحال بالنسبة لحكم الإمام على عكس ذلك فى اليمن حيث مكن هذا الحكم لنفسه على مدى قرون طويلة بكل الوسائل الممكنة كما شرحنا، ولم يكن فى اليمن استعمارأجنبي بالمعنى المفهوم الذى يمكن تجميع القوى الوطنية للعمل ضده .

كان الرئيس عبدالناصر يدرك أيضا محاذير العمل فى اليمن خاصة بالنسبة للقوى المجاورة لليمن وعدن، والنفوذ البريطاني فى منطقة الخليج، وأمام معارك الثورة فى الخمسينيات فلم يكن راغبا أو قادرا على فتح جبهة جديدة تختلط فيها الأوراق العربية بالأجنبية، ومن ثم فقد حرص على التعامل مع اليمن بحذر شديد مفضلا توظيف عامل الوقت بأحسن طريقة ممكنة .

ولكن ما أريد أن أقوله فى هذه المرحلة أن دعم مصر لثورة اليمن لم يكن وليد ليلة٢٦سبتمبر١٩٦٢ م، ولم يكن مجرد رد فعل لردة الانفصال، وتعبير عن رغبة فى استعادة التوازن لصالح التيار القومي، أو انتقام من تآمر القوى الاستعمارية والقوى الرجعية على دولة الوحدة، أو غير ذلك من الأسباب التي يتبناها كثير من الباحثين والسياسيين فى أيامنا الحاضرة، بل كانت اليمن حاضرة فى تفكير ثوار يوليو منذ فترة مبكرة جدا من عمر الثورة.

العيد الخمسون لثورة سبتمبر الخالدة ..
اليمن الجديد يعني إعداد جيل جديد وثقافة جديدة.